المبحث الرابع
علي بن أبى طالب أميراً للمؤمنين

● البيعة لعليّ : إجماع نادر

بُعَيْدَ مقتل عثمان اتجه أهل الشورى ومن ورائهم حشود من أهل المدينة إلى بيت عليٍّ بن أبى طالب دون تردد أو مفاضلة . فقد كان النجم البازغ المتفرد فى سماء المدينة الملبدة بالغيوم . وربما يمكن القول إنه كان عندئذ موضع إجماع أهل المدينة المنورة ، لا المسلمين كافة . وهكذا تصحُّ البيعة فى قولٌ علي ».(١)

و«عليّ» يصوِّر ذلك الإجماع ، وذلك الاحتشاد حوله ، كما يصور لنا تمنُّعَه عن قبول البيعة فى بيته ، وإصراره على أن تتم فى المسجد فيقول للناس : « ... بَسَطْتُم يدي (لأُبايعكم) فكَفَفْتُها ، ومَدَدْتُموها فقبضْتُها ، ثم تَدَاكَكْتُم عليَّ تَدَاكَّ الإبل الهِيم (العطاش) على حياضها يوم وِرْدِها ، حتى انقطعت النعل ، وسقط الرداء ، وَوُطِئَ الضعيفُ ، وبلَغَ من سرور الناس ببيْعتهم إيَّايَ أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وَحَسَرَتْ إليها الكعاب . » (٢)

كان الجميع إذَنْ سعداء بالبيعة لعلي بن أبى طالب أميراً للمؤمنين ، والخليفة الرابع للمسلمين ، **وقد جاءوا داره وازدحموا عليها وعليه : الصغار والكبار ، والضعاف والأقوياء ، والكهول والشباب ، والرجال والنساء ، من المهاجرين والأنصار ، لم يختلف عليه مختلف ، ولا نَفِسَ عليه منافس ، فكان الاتفاق سائداً ، لا تشوبه شائبة خلاف ، ولا أثر فيه لشيعة أو سُنَة ، لأنه لم توجد يومها شيعة ولا سُنَّة ولا خوارج ولا معتزلة ، بل أمة واحدة متحدة .**

---

(١) نهج البلاغة ؛ رقم ١٧١ ص ١٩٩
(٢) نهج البلاغة ؛ رقم ٢٢٧ ص ٢٧٧

obeikandl.com

وبوسعنا أن نجد لهذا **الإجماع النادر** المدهش أسباباً عديدة . فقد كانت **قامة علي قد تعالت** ، فرآها أهل المدينة كالمنارة الفذة ، المضيئة ؛ وكانت «**المشيخة**» **قد طابت عبر السنين** ، وامتلأت حنكة وحكمة وتجربة وعلماً ، ثم فاضت على أهل العلم نوراً وهداية . **ولم يجد الناس لعلي منافساً أو ضريباً يمكن أن يقاس عليه ، فجُذبت أبصارهم نحوه وركزت أعينهم عليه . وكانت المدينة تصطلي بنار الفتنة** وقد ضاق صدرها بأولئك الثائرين وأعُبدهم (عبيدهم)، وأعرابهم ، **وساورها القلق على مستقبل أيامها** وقد صارت عاصمة الدنيا وسيدة المعمورة . وكان عبث **مروان بن الحكم وبطانة السوء** خبر يومى يكَّدر حياة الأبرار من أهلها ، ويضاعف خوفهم على خليفتهم . ولم **يتعود أهل المدينة أن يقاتلوا أقواماً يزاحمونهم الصلوات** ، ولا جربوا ثورات تقوم ضد الخلفاء . ولو أن أجناداً غير مسلمين أغاروا عليهم لما ترددوا فى قرارهم بالقتال حتى دَحْرِهم .

ورأى أهل المدينة أنفسهم أمة واحدة تحت إمام واحد ، على قلب رجل واحد، وقد جابوا آفاق الدنيا بقوة الوحدة ، ينشرون الإسلام فى أطراف الأرض ، **وها هم يرون وحدتهم مهددة بالتصدع** والانهيار . فكيف لا يسعدون بنهاية حاسمة لتلك التهديدات ؟

● تفسير الإجماع

لكن هذه الحقائق لا يمكن أن تسوِّغ بخس الصحابة (الذين كانوا وقتها فى المدينة) أقدارهم أو التشكيك فى صلاحهم ، كأن يقول قائل إن علياً وحده هو الذى لم يعشْ الحياة الجاهلية ولم يسجد لصنم ، كسائر الصحابة ، ومن ثم لم يكن فيهم من يستحق الخلافة أو يقدر عليها غيره ! [1] للأسف بعض الشيعة يقول إن علياً هو الوحيد الذى أجمعت عليه الأمة بُعَيْدَ مقتل عثمان . وهذا صحيح ، للأسباب التى أشرتُ إليها ؛ ولكن لا يجوز ، ولا يفيد فى شىء ، أن نبنى على ذلك أن علياً كان أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان ، فتلك مغالطة ، لأن

---

(١) القبانجى ؛ تاريخ التشيع الفكرى والسياسى ؛ ص ٨٥

عليًّا الشاب فى عهد أبى بكر ، غير علي الشيخ يوم مقتل عثمان . والمدينة فى عهد أبى بكر لم تكن كالمدينة فى يوم البيعة لعلىّ . فالظروف اخْتلفت والرجال اختلفوا ، واجتهد المسلمون واختاروا بحسب وقتهم ، ويُصَوِّر أبو بكر بن الطيب الباقلاني هذه الحقائق فيقول :« والدليل على إثبات الإمامة للخلفاء الأربعة ، رضى الله عنهم ، على الترتيب الذى بيَّناه أن الصحابة رضى الله عنهم أعلام الدين ، ومصابيح أهل اليقين ، شاهدوا التنزيل ، وعرفوا التأويل ، وشهد لهم النبى ﷺ بأنهم خير القرون ، فقال :« خير القرون قرنى » فلما قدَّموا هؤلاء الأربعة على غيرهم ورتَّبوهم على الترتيب المذكور ، علمًا بأنهم رضى الله عنهم لم يقدِّموا أحداً تشهِّيًا منهم ، **وإنما قدَّموا من قدَّموه لاعتقادهم كونه أفضل وأصلح للإمامة من غيره فى وقت توليه .**»[1] والعبارة الأخيرة هى الشاهد لما أقول .

بهذه النظرة نوالى جميع الصحابة ولا نضطر إلى افتعال تفضيل أحدهم على غيره ، ضد الحقائق التاريخية وضد المنطق العقلى ، ونفتعل خلافات ، وعداوات لامُسَوِّغ لها على الإطلاق ، وربما نتورط فى سَبِّ الصحابة أو الطعن فيهم ، كما تورط كثير من الشيعة !

فيجب أن نفهم الترتيب المشهور للخلفاء الأربعة على أنه ترتيب زمانى ، لا على أنه درجات فى المكانة والفضل ،فكلهم أعلام ، وزعماء ، وعلماء ، ومجاهدون من طراز فريد . **ولهذا لا أرى مسوِّغاً لقول بعض أهل السُّنة إن عثمان بن عفان أفضل من على بن أبى طالب ، ولا لقول بعض الشيعة إن عليًّا أفضل من أبى بكر أو عمر أو عثمان ، وأقول إن فضل «علي» يومُ بويع ، يضارع فضل أبى بكر يوم بُويع** . ثم إن فردانية كل رجل منهم ، واختلاف ظروف بيعته ، تجعل المقارنات بينهم بلا أساس علمى . ويضاف إلى ذلك اختلاف تضحيات كل واحد منهم بحسب إمكاناته . فعثمان ضَحَّى بماله ، لكن عليًّا قدَّم نفسه ودمه وروحه ، فكيف نوازن بين أعمال مختلفة كيفيًا ؟!

---

(١) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ؛ ط ٣٠ ص ٦٦ – ٦٧

● مناقب أمير المؤمنين على ين أبى طالب ومؤهلاته للإمامة

ولاشك أن المسلمين حين بايعوا عليًّا فى المدنية المنورة كانوا يعرفونه حق المعرفة ولذلك لم يختلف عليه أحد مع وجود صحابة كبار مثل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، ولكن أحداً لم يذكر وصية ولا عهداً مطلقاً .

عرف الناس عنه شرف المحتد . فهو ابن عم النبى ﷺ . ولقد أكثر البعض من سؤال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن خلافة « علي » فقال لهم :« يا هؤلاء! قد أكثرتم القول فى « علي » والخلافة ! إن الخلافة لم تزيِّن عليًّا ، بل « علي » زينها » . ولما سئل عن التفضيل بين الخلفاء – وكان شائعاً فى ذلك الوقت – قال : « فى الخلافة : أبو بكر وعمر وعثمان . قالوا : فعليٌّ بن أبى طالب ؟ قال : يا بنى ! علي ابن أبى طالب من أهل بيت لا يُقاس بهم أحد ، » (١)

– فهذا أحد الأئمة الأربعة لأهل السُّنة يميز عليًّا على سائر الخلفاء الراشدين. وهذا التقدير ، ومثله كثير فى تراث أهل السُّنَّة ،يبدد كل شبهة أثارها الغلاة حول موقف أهل السُّنة من « علي » وآل البيت عامة ، وينفى انحيازهم لمعاوية والأمويين ، وتسميتهم « نواصب » – أى معادين لعلي وآل البيت . وقد قرر الإمام الشافعى رحمه الله أن الخلفاء الراشدين أربعة ، وما سواهم مبتز. » (٢) ومعنى هذا أنه يعتبر معاوية حاكماً غير شرعى ، ابتز الحكم بحد السيف .

و « عليٌّ » نال شرف النشأة فى حجر رسول الله ﷺ . وقد قال ابن إسحاق : إن أول ذَكَر من الناس آمن برسول الله ﷺ ، وصلى معه ، وصدق بما جاءه من الله تعالى ، عليٌّ بن أبي طالب ؛ وهو يومئذ ابن عشر سنين ». (٣) وكان رسول الله ﷺ يخرج للصلاة فى شعاب مكة « ومعه على بن أبي طالب ، مستخفيًا من أبيه أبى طالب . » (٤)

---

(١) مناقب الإمام أحمد ؛ ص ٢١٢

(٢) آداب الشافعى ومناقبه ؛ ص ٢٠٨ ، وفى رواية أخرى أضاف عمر بن عبد العزيز ؛ وهذا حق لامراء فيه .

(٣) سيرة ابن هشام ؛ ١ / ٢٤٥

(٤) سيرة ابن هشام ؛ ١ / ٢٤٦

ونال «عليٌ» **شرف الإصهار إلى رسول الله ﷺ** وتزوج من فاطمة الزهراء رضى الله عنها : وأنجب منها الحسن والحسين . ولم يتزوج بأخرى إلا بعد وفاتها ؛ وللحقيقة فإنه خطب جويرية بنت أبى جهل :«فسمعت بذلك فاطمة ، فَأتتْ رسول الله ﷺ فقالت : يزعم قومُك أنك لا تغضب لبناتك ! وهذا علي ناكح بنت أبى جهل ! فقام رسول الله ﷺ ، فسمعتُه (أى الراوى المسْور بن مخرمة) يقول : أما بعد، أنكَحْتُ أبا العاص بن الربيع ، فحدَّثنى وصَدَقَنى ، وإن فاطمة بضعة منى، وإنى أكره أن يسوءَها . والله لا تجتمع بنتُ رسول الله وبنتُ عدو الله عند رجل واحد!» فترك علي الخطبة.(١) ويقول ابن حجر رحمه الله إن فاطمة كانت قد أصيبت بأمها ، ثم بإخوتها :«فكان إدخال الغَيْرةِ عليها مما يزيد حزنها»(٢)

ويستشهد ابن تيمية رحمه الله بهذه الحادثة وغضب النبى من «علي» على أن عليًا أخطأ ، يريد بذلك نقض القول بعصمة الأئمة عند الإمامية .(٣)

وكان النبى ﷺ يحب عليًا حُبًا جمًا ، وكذلك الحسن والحسين . والأدلة على هذا كثيرة جداً . وصَوَّر النبى تلك المحبة العظيمة فقال لعلي :«أنت منى وأنا منك».

ولم يتخلف «علي» عن أى غزوة غزاها رسول الله ﷺ ما عدا غزوة «تبوك» .(٤) وقد أبْلَى فيها جميعا البلاء الحسن وقتل صناديد الكفار ، من أمثال عمرو بن عبد وُد يوم الخندق ، و«مرحب» الزعيم اليهودى يوم خيبر . وقد أعطاه النبى لواء المسلمين يوم خيبر ، ففتح الله على يديه.(٥)

واستخلف النبى عليًا على المدينة ، وذلك شرف لم يَحْظَ به إلا عدد من الصحابة الكبار مثل محمد بن مسلمة وأبى ذر الغفارى وعُويف بن الأضبط .(٦)

---

(١) فتح البارى ؛ كتاب فضائل الصحابة – رقم ٣٧٢٩ – ص ٧/ ٨٥

(٢) نفسه ؛ الشرح

(٣) منهاج السنة النبوية ؛ ٢ / ١٧٠

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ؛ ٢ / ٥٦٧

(٥) الفتح الربانى ؛ أرقام ٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨

(٦) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٢ ص ٥١٩، ٣٧٠، ٣٠٨، ٣٢٨، ٢٨٩

لكن عليًا لم يرض بالبقاء مع النساء والذرية ، وقال للنبى : يا رسول الله ! تخلِّفنى فى النساء والصبيان ؟ فقال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة **هارون من موسى** ؟ غير أنه لا نبي بعدى . »[١] وهكذا زال من نفس « عليٍّ » الإحساس بالضيق ، وقال : « رضيت رضيت! »[٢]

وكثير ما عبر النبى ﷺ عن **حبه الكبير لعلي** . من ذلك قوله : « من آذَى عليًا فقد آذانى . »[٣] وقوله : « مَنْ سبَّ عليًا فقد سبَّنى، »[٤] وهذا شيء طبيعى، فقد كان عليٌّ ربيب رسول الله ﷺ ، وابن عمه ، وزوج ابنته ، وأحد قادته الشجعان .

وقد كان « عليٌّ » مع النبى وفاطمة والحسن والحسين يوم المباهلة : « فقد جاء النبى ﷺ بالحسن والحسين وفاطمة تمشى خلفه ، وعليّ خلفها ، وهو يقول لهم : إن أنا دعوت فَأمنِّوا . »[٥] ويقول ابن تيمية : « إن آية المباهلة تدل على كمال اتصالهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم »[٦] لكن الطبرى لا يذكر هذه الحادثة عند تفسير الآية ٦١ من آل عمران[٧] .

- هل أوصى النبى لعلي بالخلافة ؟

ويقول بعض الشيعة :« إن النبى صلى الله عليه وسلم وآله أوصى لعليّ بالخلافة، ولكن ليس بسبب قرابته ، أومصاهرته له ، وإنما بسبب كفاءة علي وقابليته ، سواء فى استيعاب الرسالة أو درجة الإخلاص لها ، أو مستوى التفاعل والاندماج معها . »[٨]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ؛ فضائل عليّ ؛ جـ ١٥ ص ١٧٥
(٢) فتح البارى ؛ كتاب فضائل الصحابة ؛ رقم ٣٧٠٦ جـ ٧ ص ٧
(٣) الفتح الربانى ؛ رقم ٢٦٤ ص ١٢٠
(٤) نفسه ؛ رقم ٢٦٧ ص ١٢١
(٥) تفسير القرطبى ؛ ط . الشعب ؛ تفسير الآية رقم ٦١ من سورة آل عمران .
(٦) منهاج السنة النبوية ؛ جـ ٢ ص ١١٨
(٧) راجع التفسير المذكور .
(٨) القبانجى ؛ تاريخ التشيع الفكرى والسياسى ؛ ص ٥

obeikandl.com

ومن الجلي أن من الممكن القول بمنطق أقوى إن الراشدين الثلاثة كانوا أكفأ من علي عند البيعة لكل واحد منهم ، وإن كفاءة على لم تنضج إلا عند البيعة له ، بعد سنوات طويلة من الممارسة العملية إلى جانب الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه .

لكن القبانجي وغيره يشيرون إلى أن علي بن أبى طالب تميز بأنه لم يسجد لصنم ، فى حين أن الصحابة الآخرين قد عاشوا الحياة الجاهلية بكل سواءتها . ولذلك نص النبى على إمامته من بعده .(١)

وعندى أن انتقال الصحابة من الشرك إلى الإيمان هو نضال روحي كبير ؛ فالانتقال من عقيدة موروثة راسخة محترمة إلى عقيدة مضادة لها ، يحتاج إلى روح سامية ، محبة للحق ، مستعدة للصدام مع الأهل والقبيلة والسلطة ، والتضحية فى سبيل ذلك بكل مرتخص وغال . وهذا هو على وجه الدقة ما حدث مع أولئك الصحابة الرواد العظام ، فى حين كان علي لا يزال صبياً يرتع ويلعب فى شعاب مكة ، ولم يمارس الجهاد للانتقال من دين إلى دين ، بل وجد نفسه فى رعاية ابن عمه ، ووجده يمارس الصلاة ، فأخذ يحاكيه محاكاة أي غلام لأبيه . ثم انطلق الصحابة الرواد العظام فى الدعوة إلى الدين الجديد ، وكان لأبى بكر رضى الله عنه أكبر النجاحات ، إذْ جاء بعدد من كبراء قريش للنبى يعلنون إسلامهم . وكان على عليٍّ أن ينتظر سنوات طويلة حتى يستوعب الإسلام ويكتسب القدرة على الدعوة إليه ، مثل كل أولاد المسلمين الذين كانوا فى مثل سنِّه وأسلموا تبعاً لآبائهم .

● براءة علي من دم عثمان

لكل هذا ، بايع المسلمون عليًّا وبالإجماع . لكن معاوية وأتباعه واجهوه بتهمة إيواء قتلة عثمان ، وتذرعوا بذلك لرفض البيعة له !

وقد دافع عليٌّ عن موقفه ، وأثبت براءته . وأنا أنقل دفاعه كاملاً نظراً لخطورة الاتهام الموجه إليه وأثره فى القضية التى نعالجها فى هذا الدراسة . فبعد أن

---

(١) نفسه ؛ ص ٨٥

بُويع علي بالخلافة قال له قوم من الصحابة : لو عاقبْتَ قتلة عثمان ؟ فقال : « يا إخوتاه ! إنِّى لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لى بقوة والقوم المُجْلِبون (المعتدون) على حد شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ؟ وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدَانُكم والتفَّت إليهم أعرابكم ، وهم خَلاَلَكُم (فيما بينكم) يسومونكم ما شاءوا ؟ وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه ؟ إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة (مَدَدًا) . وإن الناس من هذا الأمر – إذا حُرِّك – على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك ، فَاصْبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مُسْمَحَةٌ (منقادة) . فاهدأوا عنّى ! وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى ، ولا تفعلوا فَعْلَةً تضعضع قوة وتُسقط مُنَّةً وتورث وَهَنًا وذِلَّة . وسأمسك الأمر ما استمسك ، وإذا لم أجدُ بدًّا فآخر الدواء الكي . » (١)

كان علي – إذن – ومعه كثير من الصحابة يرغبون فى القصاص من قتلة عثمان ، لكن الجماعات المعتدية كانت قوية ومعها عبيد وأعراب ، وقد اختلطوا بأهل المدينة وتحكموا فيهم .

وقد توقَّع علي أن يأتيهم مَدَد من الشام والعراق ومصر . وقد انقسم المسلمون إلى ثلاث فرق : إحداها تنشد القصاص من المعتدين ، والثانية لا ترى ذلك ، والثالثة وقفت على الحياد . ولذلك طلب علي من الصحابة أن يصبروا ويسكتوا حتى يأمرهم بغير ذلك ، ووعدهم بعلاج القضية سلما ما وسعه ، وإن لم تفلح المعالجات السلمية فسوف يقاتلهم . ولما طلب معاوية تسليمه قتلة عثمان قال علي إنه نظر فى الأمر فلم ير أنه يحل له ذلك . (٢)

وفى اعتقادى أن هذا الدفاع يبرئ ساحة علي من تهمة التقاعس عن القصاص من قتلة عثمان ، فلم يكن بوسعه ، ولم يُعْط الفرصة لإعداد القوة الكافية لقتالهم .

---

(١) نهج البلاغة ؛ رقم ١٦٦ ص ١٩٥ – ١٩٦

(٢) نفسه ؛ ص ٢٩٠

وكان معاوية بن أبى سفيان يقول إن علياً قتل عثمان :« قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وَقَتَلتَنا ! وكان معاوية يدعى أن قتلة عثمان هم أصحاب علي، وكان يطالبه بتسليمهم إليه ، ليقتلهم ، فإذا تحقق له ذلك، انضم إلى علي. **وطلب رُسل معاوية من علي أن يعترف بأن عثمان قُتل مظلومًا ، فَأبى علي . فقالوا : فمن لم يزعم أن عثمان قُتل مظلومًا فنحن منه براء»** [1] **وهذا يتعارض** مع أخبار عديدة أعلن عليٌّ فيها أنه لا صلة له بقتل عثمان ، وأنه برئ من قتلته .

وقال علي فى الرد علي معاوية وقومه :« والله ما أنكروا عليَّ منكرًا ، ولا جعلوا بينى وبينهم نَصَفًا (عدلاً) ، وإنهم ليطلبون حقًا هم تركوه ودَمًا هم سفكوه . فلئن كنتُ شريكهم فيه فإن لهم لَنَصيبهم منه ، ولئن كانوا وُلُوه دونى فما التبعة إلا عندهم . وإن أعظم حجتهم لَعَلَى أنفسهم ! يرتضعون أمًّا قد فُطمت ويحيون بدعة قد أميتت. » [2]

وَوَصَفَ علي حال عثمان رضى الله عنه مع أعدائه فقال :« وأنا جامع لكم أمره : استأثر فأساء الأثرة . وجزعتم (من أثرته) فأسأتم الجزع (لم تقفوا عند حد الشكوى ، بل تقدمتم فقتلتموه) . ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع. » [3]

واتهم علي معاوية بأنه لم يصنع شيئًا لصالح عثمان ، فلا ردَّه عن ظلم ولا رفع عنه ظلم . وإنه يطالب بدم عثمان خشية أن يُطالَب به ، لأنه هو الذى يُظن فيه أنه قتله ، فأراد معاوية أن يغالط لَيَلْتَبِس الأمر على الناس ويتشككون فى القضية.(٤) واتهم علي معاوية بأنه نَاصَرَ عثمان حين كان نصره مصلحة لمعاوية ، وأنه خذل عثمان حين علم أن نصره لمصلحة عثمان .[5]

---

(١) تاريخ الطبرى ؛ أخبار سنة ٣٧ جـ ٥ ص ٦ –٨
(٢) نهج البلاغة ؛ رقم ٢٢ ص ٤٨
(٣) نفسه ؛ رقم ٣٠ ص ٥٦ – ٥٧
(٤) نفسه ؛ رقم ١٧٢ ص ٢٠٠
(٥) نفسه ؛ رقم ٣٧ ، ص ٣٢١

obeikandl.com

● من المصيب : علي أم معاوية ؟

ورأى الإمام أبو حامد الغزالى أن :« ما جرى بين معاوية وعلي رضى الله عنهما كان مبنيًا على الاجتهاد ، لا منازعة من معاوية فى الإمامة ؛ إذْ ظن علي رضى الله عنه أن تسليم قتلة عثمان ، مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر ، سيؤدى إلى اضطراب أمر الإمامة فى بدايتها ، فرأى التأخير أصوب . وظن معاوية أن تأخير أمرهم – مع عظيم جنايتهم – يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسَّفْك . وقد قال أفاضل العلماء : **كل مجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد . ولم يذهب إلى تخطئ علي ذو تحصيل أصلاً .** » (١)

فالمصيب عند كبار العلماء ، ومنهم الغزالى : علي بن أبى طالب ، وقد قالها علي لمعاوية فى إحدى رسائله :« إنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار (لأنه لم يتقدم للإمامة يومها إلا علىٌّ) ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار . فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضا . فإن خرج عن أمرهم خارج، بطعن أو بدعة ، ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاَّه ما تولى . » (٢)

ونلاحظ هنا أن علياً لم يشر إلى وصية أو عهد ، وإنما استند إلى البيعة الحرة التى حظى بها من أهل الحل والعقد فى المدينة الذين سبق أن بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان . فمنطقه لا يختلف فى كلمة واحدة عن منطق خلفاء أهل السنة جميعاً ، لأنه رابعهم فى الحقيقة . وهذه الروح الشورية هى التى صبغت الحياة الإسلامية السديدة فى الأوساط الشيعية والسُّنِّية . ولقد اجتمع بنو هاشم عند الإمام الصادق للبيعة لمحمد النفس الزكية فامتنع الصادق عن البيعة له وعلل ذلك بأنه صغير وأنه يرى أن البيعة لأبيه أَوْلَى . » (٣)

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ جـ ١ ص ١١٤

(٢) نهج البلاغة ؛ رقم ٦ – باب المختار من كتبه – ص ٢٨٨

(٣) أبو زهرة ؛ الإمام الصادق ؛ فقرة ١٦٣ ص ٢٠٣

وكان علي قد حاول تسوية المشكلات مع الثائرين ضد عثمان ، لكن بطانة السوء كانت تفسد ما يصلحه ، الأمر الذى أغضب عليًا ، والذى لمسناه فى الحوار السابق بينهما . وحاول الحسن بن علي الدفاع عن عثمان ، لكنه لم يستطع .

ودخل الثائرون بيت عثمان ، وقتلوه . ويُذكر أنَّ اللذيْن باشرا القتل هما : قتيرة الغافقى ، وسودان بن حمران . وقد قتلهما غلمان عثمان دفاعًا عنه ، رحمه الله .(١)

وبعد ذلك تصاعدت المطالبة بدم عثمان ، واتُّهم « عليٌّ » بقتله أو إيواء قتلته . **ووقعت أشنع المعارك دموية فى تاريخ الأمة المسلمة فى ذلك الزمان ، فى معركة «الجمل» سنة ٣٦ هـ ، ثم معركة «صفين» سنة ٣٧ هـ . وقد بلغ عدد القتلى فى «الجمل» ١٣٠٠٠ (ثلاثة عشر ألف) قتيل وفى «صفّين» بلغ عدد القتلى ٦٠٠٠٠ (ستين ألف) قتيل !(٢) فكانت أعظم الكوارث التى حاقت بالأمة ، ومزقتها ، وأورثتها الشقاق والنزاع والخلاف الدائم .**

● معركة صفين

ويصف الشوكانى رحمه الله تلك الكارثة فيقول :« أرسل علي إلى معاوية يطلب منه البيعة ومن أهل الشام : « فاعتل بأن عثمان قتل مظلومًا ، وإنها تجب المبادرة إلى الاقتصاص من قتلته ، وإنه أقوى الناس على الطلب بذلك ، والتمس من عليٍّ أن يمكنه منهم ، ثم يبايع له بعد ذلك . وعلي يقول : ادْخل فيما دخل فيه الناس وحاكمهم إليَّ أحكم فيهم بالحق . فلما طال الأمر (يعنى امتناع معاوية عن البيعة) ، خرج علي فى أهل العراق طالبًا قتال أهل الشام . فخرج معاوية فى أهل الشام قاصدًا لقتاله ، **فالتقيا بصفّين** . ودامت الحرب بينهم أشهرًا . وكاد معاوية وأهل الشام أن ينكسروا ، فرفعوا المصاحف على الرماح ، ونادوا : ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ... فترك القتال جمع كثير ممن كان مع علي ، خصوصًا القُرَّاء بسبب ذلك ، تدينًا . » (٣)

---

(١) تاريخ الطبرى ؛ أحداث سنة ٣٥ هـ ـ ٥ / ٣٤٤ ـ ٣٩١

(٢) الذهبى ؛ العبر ؛ ١ / ٢٧ ؛ وطبقات ابن سعد ؛ ٢ / ٥٧٨

(٣) الشوكانى ؛ نيل الأوطار ؛ جـ ٧ ص ١٥٨

وأدان معظم فقهاء أهل السُّنة موقف معاوية. قال الحسن البصرى رحمه الله: «أربع خصال فى معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة: خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها بغير مشورة منهم، واستخلافه يزيد، وهو سكير خمير يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجَرَ» وقتْله حِجْر بن عَدِي.» (١)

● الحسن بن علي ومعاوية

ولقد قاتل الإمام علي – أمير المؤمنين – وخليفة المسلمين الشرعى المبتزين من بنى أمية حتى قُتل غيلة. وبويع للحسن بن عليّ بالخلافة، لكنه لم يواصل الدفاع عن نظام البيعة، وسلم السلطة لمعاوية. وكان عذر الحسن أنه لم يجد فى أتباعه الإرادة الصلبةوالوحدة القوية، وقدخذلوا أباه، بل قاتله بعضهم. **لكن بعض أنصار الحسن أنكروا عليه الركون إلى القعود وترك الجهاد فقال له جارية بن قدامة: ما يجلسك ؟! سِرْ يرحمك الله إلى عدوك قبل أن يُسار إليك! وقال سلمان بن صرد: ما ينقضى تعجبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة وشيعة البصرة!»** (٢) **وفى اعتقادى أن تسليم الحسن قيادة الأمة لمعاوية هو أكبر خطأ وقع فى تاريخ الأمة المسلمة، وجعل القيادة فيها للمبتزين والمتغلبة وقراصنة السلطة. وكان ذلك هو السبب الأساسى فى القلاقل والاضطرابات التى لم تتوقف إلا لتشتعل على امتداد التاريخ الإسلامى وفى العصرين الأموى والعباسى خاصة. وفى اعتقادى أن عام تسليم الحسن السلطة لمعاوية لا يمكن، ولا يجب، أن يُسمَّى «عام الجماعة». فتلك خدعة كبرى، لأن الأمة لم تتحد ولم تجتمع فيها، وظلت التمردات والانقلابات والاغتيالات والانقسامات هى الطابع الدائم لتاريخها، وحتى اليوم.** يقول ابن أبى الحديد فى وصف تلك الفترة الدامية: «إنهم حاربوا عليًّا، وَسَمُّوا الحسن

---

(١) نقلاً عن أبى زهرة؛ الإمام الصادق؛ فقرة رقم ٩٠، ص ١١٣ (وحجر كان قد خرج على معاوية، ثم أمَّنه، ثم قتله غدراً.)

(٢) نزار المنصورى؛ النصرة؛ ص ٩٠ – ٩١

وقتلوا الحسين ، وحملوا النساء (من آل بيت النبى !) على الأقتاب – حواسر ! – وكشفوا عن عورة على بن الحسين – حين أشكل عليهم بلوغه – كما يُصنع بذرارى المشركين إذا فُتحت دُورهم عنوة . وقَتَلَ عبيُد الله بن زياد ... تسعة من صُلب علي رضى الله عنه وسبعة من صُلب عقيل ابن أبى طالب ... وَضَرَب عُنق « مسلم بن عقيل بن أبى طالب » صبراً وغدراً بعد الأمان ، وقتلوا معه هانئ بن عروة لأنه آواه ونصره . »[1] ولم تتوقف التمردات والاضطرابات بعد ذلك .

فهذا هو نظام الملك العَضَوض الذى حَلَّ مكان النظام الإسلامى ، نظام البيعة الحرة ، الملتزم بالشرائع والقيم الإسلامية . ونحن اليوم نعرف مآسى ذلك النظام البغيض الظالم ، لأننا نعيشه أو « نموته ! » إن جاز التعبير . والشعوب المسلمة تناضل للخلاص منه واستعادة نظامها الأصيل ، لكن الهيمنة الأمريكية تساند الطغاة والمستبدين ، وتحبط جهود أمتنا المجاهدة . وهذه هى معضلة الأمة المسلمة اليوم .

---

(١) أبو زهرة ؛ الإمام الصادق ؛ فقرة رقم ٩١ – ص ١١٤

obeikandl.com